عصر صدر الإسلام

والتطورات السياسية والاجتماعية والدينية

انقضى العصر الجاهلي بمجئ الإسلام وظهور النبي الكريم محمدﷺ، والإسلام هو الدين الخاتم والشريعة الربانية السمحة الغراء الأخيرة، وهو يقوم علي ثلاث دعائم مهمة هي: العقيدة والعمل والسلوك .

وأهم أركان العقيدة: الإيمان المطلق بوحدانية الله عز وجل، الإله الواحد الفرد الصمد الذي ليس له شريك في ملكه، الواحد الأحد، القادر القاهر الذي ليس كمثله شئ وهو العليم بكل شئ .

وكذلك الإيمان بأن محمدا ﷺ هو الرسول الخاتم، والإيمان بالأنبياء والرسل وبالكتب السماوية جميعها، وباليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب وجنه ونار، والإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره.

وإلى جانب تلك الدعامة هناك **دعامة العمل:** العمل الديني من عبادات وفرائض والعمل الدنيوي الحلال الذي يتكسب الإنسان به ومنه رزقا حلالا . **وأما الدعامة الثالثة** فهي السلوك ، والحق أن الإسلام قد أوضح للإنسان طريق الخير من الشر، ودعا إلى الفضيلة، ونهى عن الرذيلة، كما نهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ودعا إلي التحلي بالأخلاق الكريمة والتخلي عن الأخلاق الذميمة. والإسلام بذلك عقيدة ، وعمل ، وسلوك . ويمتد عصر صدر الإسلام في تاريخ الأدب العربي من ظهور الإسلام إلي نهاية عصر الخلفاء الراشدين ، ويؤرخ له بعض مؤرخي الأدب من سنة الهجرة النبوية المباركة إلي قيام الدولة الأموية (من السنة الأولي للهجرة إلي سنة أربعين هجرية).

وإن كنا نري – من الوجهة الأدبية – أن أدب تلك الفترة يمتد إلي ما قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة ، فمنذ بعث النبي ﷺ ونزل قوله تعالي" اقرأ " بدأ أدب صدر الإسلام .

ولعل أهم سمة لهذا العصر من الناحية السياسية هي : الوحدة " فلقد كان العرب في الجاهلية يعيشون حياة قبلية متفرقة لا يعرفون فيها مفهوم الآمة الواحدة ، وكانت كل قبيلة تتعصب لنفسها تعصبا شديدا.

وقد وجدت بعض الإمارات في الشمال مثل (المناذرة في العراق والغساسنة في الشام) وبعض الدول في الجنوب مثل (سبأ وحمير ومعين في اليمن) أو بعض المدن مثل (مكة ويثرب والطائف) التي تعارفت علي بعض القوانين النابعة من الأعراف والتقاليد .

كما كان هناك نوع من الأحلاف بين بعض القبائل مثل الأحلاف التي تمت بين إمارة كندة وبعض القبائل في شبه الجزيرة العربية .

وأما بقية السكان فقد كانوا يعيشون في نظام قبلي ، وكان لكل قبيلة مجلس يضم شيوخ العشائر ، وكان هذا المجلس ينظر في شئون القبيلة وأمورها وينظم شأنها ويترأس هذا المجلس شيخ القبيلة .

وقد كانت الفردية هي المسيطرة والقوة هي الغالبة ، ولكن حينما جاء الإسلام أذاب ذلك كله في بوتقة واحدة فصهر القبيلة ومحا الفردية وأحل نظاما سياسيا جديدا فلم يعد الفرد يشعر بوجود الجماعة القبلية أو يحس بالتعصب لها .

والحق أن تغيرات كثيرة قد طرأت علي ذلك كله، وأهم هذه التغيرات اتساع الروابط التي تشد الإنسان إلي أخيه الإنسان ؛ فلم تعد الأخوة مقتصرة علي أبناء القبلية بل تجاوزتها إلي كل من يدين بالإسلام وحلت فكرة الأمة محل القبيلة، هذه الأمة التي يعلو فيها القانون السماوي والتشريع الإلهي والدستور الرباني ، ومن ثم فقد صارت الرابطة الدينية هي التي توحد، وصار العرب ينضوون شيئا فشيئا لسلطان المدينة وقيادة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده. لقد صار للأمة العربية دولة واحدة، وقائد واحد، ودستور واحد، وقانون واحد، وعاصمة واحدة ، وراية واحدة ، وجيش واحد ، وقبل ذلك كله دين واحد.

ومن حيث الناحية الاجتماعية : فلقد أحدث الإسلام تغيرات جذرية كثيرة في المجتمع العربي فلا عصبية لقبيلة ولا سلطان لفرد ، وحاول الإسلام جاهدا القضاء علي المفاسد الاجتماعية الشائعة وإحلال القواعد الاجتماعية الجديدة التي تتفق والفطرة البشرية النقية الصافية التي فطر الله الناس عليها . وكان من أهم المفاسد الاجتماعية التي حاول الإسلام محوها : الأخذ بالثأر حيث جعل حق الآخذ بالثأر للدولة لا للقبيلة وجعل العقاب بالمثل فلا عدوان ولا اعتداء ، وجعل في القصاص حياة للمجتمع حيث يقول ربنا سبحانه وتعالي" ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب"[1] وجعل *هذا* القصاص في يد الحاكم لا في يد أهل القتيل .

ودعا الإسلام إلي التعاون بين الأفراد علي الخير ونبذ الخلافات ونهي عن الشرور وقضي علي الفوارق الطبقية فلا سادة ولا عبيد ، ووضع نظام الزكاة والصدقات فأصبح في مال الغني حق معلوم للسائل والمحروم [2] ، وقد أدي ذلك كله إلي التكافل الاجتماعي وانتشار المحبة والمودة في المجتمع . وفي محيط العدالة الاجتماعية أعطى الإسلام المرأة حقها فلقد كان الجاهليون يحطون من شأن المرأة ويرون أن من واجب الأب وأد ابنته حتى لا يلحقه العار أو خوفا من الفقر [3].

وأما الإسلام فقد رفع من شأن المرأة وجعلها كفؤا للرجل، كما نظم الزواج ودعا إلي معاملة الزوجات معاملة طيبة ،وجعل الطلاق في أضيق الحدود حتى لا تتفكك الأسرة ويتشرد الأبناء.

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٧٩

(٢) قال تعالي: " والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم " المعارج الآية ٢٤ ، ٢٥. ويقول سبحانه وتعالي : وفي أموالهم حق للسائل والمحروم " الذاريات – آية ١٩ .

(٣) أشار الإسلام إلي ذلك في قول الله سبحانه وتعالي :" وإذ بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتواري من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه علي هون أم يدسه في التراب ألاساء ما يحكمون " النحل ٥٨، ٥٩. وفي قوله تعالي :" وإذا الموءودة سئلت . بأي ذنب قتلت " التكوير ٨ ، ٩ . ويجب أن نشير هنا إلي أن العرب لم يكونوا جميعا يئدون البنات وإلا انقرض الجنس العربي ، إنما بعض القبائل وبعض الأفراد وذلك مثل قيس بن عاصم التميمي الذي وأد بضعة عشر بنتا. ومنهم من كان يئد من البنات من كانت زرقاء شيماء (بها علامة قبيحة) أو برشاء (بها نقط أبيض) أو كسحاء (قعيدة) أو خوفا من الفقر والعار.

ودعا الإسلام إلي المعاملة الطيبة ومراعاة الضمير في العلاقات والتجارات والميراث ، والحق أنه لم يترك شيئا إلا سن له قوانينه ونظم دساتيره.

وأحدث الإسلام بالإضافة إلي ذلك كله – قيما جديدة : دينية وعقلية وإنسانية ونفسية كثيرة. فلقد قضي علي عبادة الأصنام ودعا إلي نبذ الأوثان وترك الكهانة والخرافة والشعوذة مرتفعا بذلك بعقلية الإنسان ومخلصا الإنسانية من الحماقة والطيش، ودعا الإنسان إلي عبادة الله الواحد الأحد، كما دعا إلي التأمل في ملكوت السموات والأرض والنظر في الكون والنفس والحياة ، والتفكير في مخلوقات الله عز وجل [1]، وقد تضمن كثير من الآيات الدعوة إلي ذلك التفكير والتأمل [2]، ونحي الإسلام باللائمة علي كل من لا يستخدم عقله، فدعا إلي استغلال العقل وأشار إلي فضيلته ؛ ولذا أوجب علي الإنسان أن يستخدمه في العلم والمعرفة النافعة وخاصة معرفة الله سبحانه وتعالي. وكما ارتفع الإسلام بالعقل البشري [3]، فقد ارتفع بالإنسان عامة فدعاه إلي السمو وحرره من العبودية وجعل الناس سواسية كأسنان المشط وكرم الإنسان فجعله أكرم المخلوقات [4]، وحث علي الحرية والكرامة ، واعتد بحقوق الإنسان، ودعا إلي السلم والوئام، ونبذ الحروب والخصام.

والحق أن الإسلام قد يدل حياة العرب المفككة وأخلاقهم السيئة بحياة شريفة لا يستبد فيها ظالم ولا يسودها حقد أو ضغائن ، وأبدلهم

---

(١) قال تعالي : " إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب " آل عمران ١٩٠ .

(٢) قال عز وجل : " وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون . الذاريات ٢٠ ، ٢١. وقال عز من قائل : " قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله علي كل شئ قدير " العنكبوت ٢٠ .

(٣) ولذلك كانت أول أية في القرآن الكريم داعية إلي العلم والتعليم والمعرفة ، قال تعالي :" اقرأ باسم ربك الذي خلق – خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم " العلق ١– ٥ . وكان العلماء من أكثر الناس خشية لله عز وجل كما يشير إلي ذلك القرآن في قوله تعالي " إنما يخشي الله من عبادة العلماء " فاطر ٢٨ .

(٤) قال تعالي : ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر " الإسراء – ٧٠ .

بالجفاء والغلظة وخشونة القول والفظاظة والعنهجية أدبا كريما وقولا لينا وخلقا عظيما وطباعا تفيض بالجلال والبهاء ، طباعاً تعتمد علي طهارة النفوس وسلامة الصدور وصفاء القلوب .

ولا يمكن أن يغفل ذلك الأثر الروحي العظيم فلقد تحول العرب من حياة القلق والخوف والحيرة إلي حياة ملؤها الأمن والسكينة والاطمئنان إلي جنب اللّه .

لقد حولهم الإسلام إلي حياة التقي والورع والتواضع والزهد وكبح جماح النفس والسعي في مناكب الأرض والحياة .

وبمعني أدق استطاع الإسلام أن يحول حياة الإنسان العربي إلي حياة كلها رضا وطهر ونقاء وعفة وسكينة وصفاء.